# الأَزهر ومدارس الشعر المعاصر

الأستاذ / عبد العزيز الدسوقي

لا شك في أن (الأزهر) أصبح من أكبر القسمات المميزة لحياتنا الثقافية والأدبية والروحية، على امتداد الأرض العربية، والعالم الإسلامي، منذ أكثر من ألف عام. بل لعلي لا أغلو إذا قررت أن (الأزهر) لعب دورًا هامًا في تاريخ الحضارة الإنسانية، ومنح التاريخ الإنساني أنضر الصفحات، وأعطى الحياة الفكرية والروحية أعظم الرجال.

لن أستطرد إلى المجالات المتعددة التي أسهم الأزهر فيها إسهامًا كبيرًا، وسأقصر هذه الدراسة على أثر الأزهر في اتجاهات الشعر بصفة عامة، ومدارس الشعر المعاصر بصفة خاصة.

فقد أصبح من البدهيات التي لا يماري فيها أحد أن من بين أبناء الأزهر كثيرين ممن أسهموا في صنع نهضتنا الحديثة، فمن بين جدرانه ومن أروقته امتلأت المدارس الحديثة والمعاهد التي أنشئت منذ مطالع القرن التاسع عشر، كمدرسة الطب والهندسة والألسن ودار العلوم والقضاء الشرعي، وغيرها من المعاهد التي طورت الحياة في مصر وانتقلت بها إلى ركب الحضارة الإنسانية ومن بين أبنائه شكلت البعثات العلمية التي وصلت الشرق بالغرب، وتفتحت على المعارف الحديثة وعادت إلى البلاد تغرس فيها تلك البذور التي أثمرت فيما بعد أشهى الثمرات. وفي مجال

الزعامة العلمية والقومية والسياسية والتشريعية تجد أشهر الأسماء التي تخرجت في هذا المعهد العتيد.

## كوكبة الشعراء الأعلام:

على أن الأزهر كان له دور كبير فيما يتعلق بالأدب والثقافة وبصفة خاصة ما يتعلق بالشعر؛ وذلك بفضل التكوين الثقافي والإعداد العلمي الذي كان يتوافر لأبنائه بصورة كبيرة في مجال العلوم العربية، إلى جانب الفقه والتفسير وبقية العلوم الشرعية. وكانت طريقة التدريس في ذلك المعهد – مهما شابها من عيوب – تكون العقل العربي تكوينًا متينًا، وتربي في الطالب ملكة مقتدرة، يستطيع من خلالها أن يستوعب كل المعارف الإنسانية مهما كانت.

وكانت هذه الطريقة تصقل الطالب وتعوده الصبر والمثابرة والجلد، وحسن التلقي والقدرة على التحصيل والاستيعاب. وعندما كان يتاح لهذه العقول أن تتفتح على ثقافة حديثة أو تتصل بالحضارة الإنسانية، كانت تفيد أكبر الإفادة، وتؤثر بعد ذلك أكبر التأثير. وكانت دراسة الشعر والعروض وتاريخ الأدب، من الدراسات التي احتفظ بها الأزهر في مختلف مراحله، وكان الطلاب يلوذون بهذه العلوم فرارًا من متون الفقه والأصول والمنطق وشروحها وحواشيها وتقاريرها.

وقد كان هؤلاء الطلاب يحفظون كثيرًا من الشعر بكل أنواعه وفي كل عصوره، جاهليًا وإسلاميًا وأمويًا وعباسيًا، ومن هنا كانت تتكون لهم ملكة النظم. ويمكن أن نقول أن شعراء القرن التاسع عشر – كلهم أو معظمهم – كانوا من الأزهر.

ولقد عشت فترة من الزمان في تاريخ الجبرتي، حتى أتبين ملامح هؤلاء الشعراء، فهالني أن أجد تلك الكوكبة الكبيرة من شعراء الأزهر الأعلام، ومهما قيل حول شعرهم الآن، فإنه كان متلائمًا مع المرحلة الحضارية التي كانوا يعيشون فيها. ونخطئ كل الخطأ، لو حاسبناهم بتلك المعايير الفنية التي نقيس بها شعرنا المعاصر، فهذا – فوق كونه خطأ منهجيًا – يفصل الظواهر الفنية عن سياقها الحضارى ويتجاهل ظروفها وبيئتها.

ومع ذلك فهناك عدد كبير من هؤلاء الشعراء يمكن أن نلتمس في بعض أشعارهم إشعاعات نافذة، تعبق بعطور القدم، وتثير في العقول والنفوس لذة ومتاعًا.

## (المارسيلييز) بالعربية:

لن نستطيع أن نتتبع كل شعراء الأزهر وأثرهم في النهضة الأدبية الحديثة، وإلا تحولت هذه الدراسة إلى مجرد سرد أسماء، ويكفي أن نشير إلى أنهم طوروا ما نسميه الآن تجوزًا (مدارس الشعر الحديث) أو بمعنى أدق أسهموا في تطوير اتجاهات الشعر العربي عبر قرنين من الزمان. ولقد كانت لهم قيادة فكرية وروحية في المجتمع العربي في مصر، ومن هنا كان يجيء تأثيرهم القوى في الرأي العام.

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر، كان هؤلاء الشعراء الأزهريون يستخدمون الشعر سلاحًا وطنيًا وقوميًا، ويكفي أن نشير إلى عبد الله النديم الثائر العظيم، الذي كان يستخدم الشعر والزجل والكلمة سلاحًا في معركته التي خاضها طوال حياته المثيرة المشعة، حتى ثوى في أرض الغربة، وقبل عبد الله النديم، ترجم رفاعه الطهطاوي (المارسلييز) نشيد الثورة

الفرنسية شعرًا إلى العربية، ونظم بعد ذلك عدة أناشيد وطنية وثورية.

في هذا الوقت المبكر من الزمان ظهر من شعراء الأزهر الأعلام، الخشاب وحسن العطار (١٨٣٤) وعبد الله الشبراوي، وعلي الدرويش (١٨٥٣) ومُحَمَّد شهاب الدين المصري، ومصطفى الصاوي، وعلي أبو النصر (١٨٨٠) وعلي الليثي (١٨٩٦)، وحسن قويدر الخليل (١٨٤٥) وعبد الهادي نجا الإبياري (١٨٨٨) وغيرهم، وغيرهم.

## طرائف وغرائب:

ومن الغريب أننا نجد في هذه الفترة المبكرة من الزمان تحررًا وجرأة من هؤلاء الشعراء الأعلام من رجال الأزهر، فبعضهم وصل إلى مشيخة الأزهر، وهي أكبر منصب ديني كان له سطوة كبيرة، وتأثير جليل، ومع ذلك وجدت لهم شعرًا في الغزل، وبعضهم نظم ما يمكن أن نسميه الآن بشعر المجون أو الشعر المكشوف.

وقد أثار دهشتي أن أجد في القرن الثامن عشر شاعرًا من شعراء الأزهر يسمى حسن البدري (١٧١٨م) يكتب الشعر في مجالات مختلفة، في النقد الاجتماعي والأخلاقي إلى جانب أراجيزه في التصوف، ثم يكتب مع هذا شعرًا في الغزل المكشوف، أو بمعنى أدق يكتب (شعر المجون) ومع ذلك فقد كان هذا الرجل ورعًا متصوفًا، كثير الانتقاد لأهل عصره وعاداتهم الفاسدة، وتظاهرهم بالورع والتقوى، وكان خفيف الظل، بارع الفكاهة. يقول عن أدعياء التصوف:

ليتنـــا لم نعـــش إلى أن رأينـــا  كـل ذي جنـة لـدى النـاس قطبـا

ويقول عن بعض أصحاب اللحى الزائفة:

رب قصـــير في الـــورى لحيتـــه  طولهـــا الله بـــلا فائـــدة

كأنهـــا بعـــض ليـــالي الشـــتا  طويلـــــة مظلمـــــة باردة

## وجهة نظر متقدمة:

وهناك شاعر آخر من شعراء الأزهر في القرن الثامن عشر (١٧٧٠م)، اسمه (عبد الله سلامة الإدكاوي)، وهو علم من أعلام الفكاهة والمجون، ويحدثنا الجبرتي أن له مقامة في المجون أسمها (المقامة القمذية)، وفيها هزل كثير. ولكن الذي يلفت النظر في الشاعر (الإدكاوي) أنه كان واسع الأفق متفتح النفس، له وجهة نظر متقدمة في القديم والجديد، وكان حسه المعاصر يدفعه إلى تقبل كل جيد وعدم رفض أي شيء؛ بحجة أنه لا يلتزم الصورة القديمة، وقد صاغ هذه الرؤية المتقدمة في أبيات واضحة يقول فيها:

كـــن للمعاصـــر خـــير ناصـــر  كـــم للأواخـــر مـــن مفـــاخر

لا تحقـــــــرن جديـــــــدهم  كـــم في جديـــدهم جـــواهر

ودع التعصـــــــب لـــــــلأوا  ئـــل يا فـــتى، أو للأواخـــر

مـــن كـــان مـــنهم مبـــدعًا  فاعقـــد عليـــه مـــن الخناصـــر

هذه المرحلة المتقدمة يمكن أن نسميها المرحلة التقليدية على الرغم مما فيها من بعض اللمحات الذكية والنقدات الاجتماعية الواعية، وبعض الشعراء المتقدمين. ولقد امتدت هذه المرحلة فشملت مجموعة من شعراء

القرن التاسع عشر وبعض شعراء القرن العشرين ومنهم عبد الله فكري، وعبد الرحمن قراعة، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وأحمد مُحَمَّد الحملاوي، وغيرهم.

## الشعر والوحدة الوطنية:

ومن هؤلاء الشعراء من هو في حاجة إلى دراسة خاصة، تعرف به وتكشف أسرار فنه، فقد ابتلع طوفان الزمان كثيرًا من هؤلاء الشعراء ظلمًا وعدوانًا، وكان يجب أن تظل أسماؤهم في دائرة الضوء، أو على الأقل تأخذ حظها من التألق والبريق. ومن هؤلاء الشاعر الأزهري أحمد مُحَمَّد الحملاوي (١٨٥٦ – ١٩٣٢)، وهو عالم لغوي حجة وله مؤلفات ذائعة في الصرف والبلاغة، أخذت شهرة أكثر من اسمه منها: (زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع)، و(شذا العرف في فن الصرف).

ولكن شهرته كشاعر عفا عليها الزمان، على الرغم من شاعريته الناضجة، وفي ديوانه المطبوع كثير من الشعر السياسي والقومي وشعر التصوف وشكوى الزمان، وله قصيدة يناجي فيها مصر نداء عاطفيًا حارًا تحس فيها بمعاصرة شديدة. يقول فيها:

يا مصر لا تقنطي، فالنصر قد ... سبحان من أرغم الأعداء

ولا تخافي، فعين الكل ساهرة ... فالدهر أدبنا جمعًا وربانا

ولقننا الليالي من تصرفها ... ما شان من حالة الدنيا وما زانا

وهي قصيدة طويلة حافلة بالنظرات السياسية التي تكاد تلامس همومنا المعاصرة، فهو يتحدث عن الوحدة الوطنية بين أبناء الأمة، ويرفض

وصاية الأعداء وحمايتهم. يقول:

فالكل بالروح يفديها وينصرها وإن هم اختلفوا رسلًا وأديانا
القلب مؤتلف والدين مختلف لكن تراهم – أمام الأم –

ثم يقول:

فلا وربك لا نرضى حمايتهم وإن هم رفعوا للعدل ميزانا
وكيف والغدر والعدوان ديدنهم وقد أسالوا دماء العزل خلجانا

وهناك شاعر آخر متين النسج قوي الديباجة، هو عبد الرحمن قراعة، وقد سبب له الشعر كثيرًا من المتاعب، فقد كتب قصيدة بعد أن ترك الشيخ المهدي مشيخة الأزهر، وأصبح الشيخ الإمبابي شيخًا له، يقول في مطلعها:

خذوا حذركم فالأمر قد جاء لقد ظهر الدجال واختبأ المهدي

فنكل به الشيخ الإمبابي، وظل ينقله فترة طويلة، وقد كتب قصيدة بعد زمان طويل يستعطف الشيخ الإمبابي، قال فيها:

أما آن أن تنسى الرباب وزينبا وتقلع عما كان في زمن الصبا
ألم تعتبر إذ كنت أجرد أمردا ودهم الليالي قد تركنك أشيبا

وهو استعطاف عجيب يدل على إباء الشيخ قراعة واعتداده بنفسه. بعد ذلك لا أبغي المضي في استعراض أسماء الشعراء من الأزهر على هذا النحو بطريقة غير منهجية، بل لا بد من تأصيل نظري يجمع كل هذه الأسماء، فيما يشبه أن يكون مدارس شعرية أو اتجاهات. وهنا لا يمكن

فصل هؤلاء الشعراء عن مدارس الشعر التي سادت في الأمة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن، وهي: مدرسة البعث، ومدرسة التجديد، ومدرسة أبوللو، وجيل الشعر الحديث أو جيل الشعر الحر. وقد أمد الأزهر كل هذه المدارس بأبرز أبنائها وروادها.

## فكرة جديدة:

وقبل أن أتعرف على أبناء كل مدرسة من هذه المدارس، أحب أن أعرض فكرة جديدة اقتنعت بها بعد سياحة طويلة في اتجاهات الثقافة العربية الحديثة، وهي أنني أعتبر أبناء الأزهر ودار العلوم والقضاء الشرعي أبناء ثقافة واحدة، وفي مجال الظاهرة الأدبية والفنية أعتبرهم جميعًا أزهريين، وأنا أعلم أن هذه الفكرة ستغضب بعض أشقائنا الدراعمة، الذين يعتبرون أنفسهم الآن أبناء جامعة القاهرة، ولكن فليغفروا لي هذا التصور الذي برز بصورة واضحة أمامي وأنا أكتب هذه الدراسة عن شعراء الأزهر وأثرهم في مدارس الشعر المعاصر.

والفكرة على كل حال تستند إلى أسس علمية موضوعية، فلا شك أن (دار العلوم) تلك المدرسة العتيدة منذ قامت في عام ١٨٧١، كانت رافدًا عميقًا أو فرعًا من فروع الأزهر، والفرع الثاني هو مدرسة القضاء الشرعي التي أنشأها سعد زغلول عندما كان وزيرًا للمعارف في عام ١٩٠٧، وإذا مضينا في التشبيه واعتبرنا الأزهر هو النيل، وهذين المعهدين هما فرعاه، فإنني أعتقد أن هذين الفرعين اكتسبا حيوية وشبابًا جددت شباب النهر الأم.

فإذا بعدنا عن التشبيهات وعمدنا إلى الحقائق، وجدنا أن مدرسة دار

العلوم منذ قامت تستمد تلاميذها من الأزهر، وكذلك مدرسة القضاء الشرعي، بل إن الرعيل الأول من أساتذة دار العلوم كان من الأزهر. نذكر على سبيل المثال الحسين المرصفي، ومُحَمَّد عبده، وحسن الطويل، وحمزة فتح الله، وحسونة النواوي، وسيلمان العبد.

وكذلك أمد الأزهر مدرسة القضاء الشرعي بصفوة من أبنائه الأعلام، قاموا بالتدريس فيها منذ إنشائها، نذكر منهم: عبد المجيد سليم، وإبراهيم حمروش، ومُحَمَّد بخيت المطيعي، ومُحَمَّد طموم، وحسين والي.

حتى الجامعة المصرية منذ قامت في عام ١٩٠٨، استضافت بين أساتذتها من رجال الأزهر مُحَمَّد المهدي، ومُحَمَّد الخضر، والسيد بن علي المرصفي، وغيرهم؛ لهذا أعتبر الشعراء الذين تخرجوا في دار العلوم والقضاء الشرعي شعراء أزهريين.

وعلى كل حال هناك سبب موضوعي يدعوني إلى هذا، وهو أن هؤلاء تكونوا علميًا وفنيًا في الأزهر طوال تسع سنوات، وأتيح لهم من الزاد الفني والأدبي قسط كبير، صقل ملكاتهم الفنية ونما مواهبهم الشعرية. وأظن أن ملامح الشاعرية تتكون وتتحدد في تلك السن المبكرة من الشباب (حتى العشرين)، وهؤلاء جميعًا ظلوا في الأزهر إلى ما بعد سن العشرين بقليل، وذهبوا إلى معاهدهم الجديدة، وهم شعراء متكونون. بطبيعة الحال تفتحوا على معارف جديدة، وثقافات مختلفة زادتهم تفتحًا ونموًا، ولكن لون شاعريتهم ظل يدين لهذا التكوين الأول في الأزهر. وليس هناك شك في أن هؤلاء أغنوا مدارس الشعر العربي الحديث.

## مدرسة البعث:

ففي مدرسة البعث التي رادها البارودي وشوقي وحافظ، يمكن أن نضيف مُحَمَّد عبد المطلب، وعبد الوهاب عزام، وعلي الجارم، ومحمود غنيم، ومُحَمَّد الأسمر، وعلي الجندى، وعبد الله عفيفي، وعبد الجواد رمضان، والباقوري، ومُحَمَّد نايل، والبديوى، و(أبا الخشب)، والخفاجي، وغيرهم.

## مدرسة التجديد:

وأما مدرسة التجديد التي رادها العقاد وشكري والمازني، فيمكن أن نضيف إليها العوضي الوكيل، وأحمد مخيمر، وعبد العزيز عتيق، وغيرهم.

## مدرسة أبوللو:

وفي جماعة أبوللو التي رادها علي محمود طه، وأبو شادي، وناجي، والصيرفي، وصالح جودت، وتلألأت مجموعة من ألمع أبناء هذه المدرسة من الأزهر ودار العلوم، منهم محمود حسن إسماعيل، ومُحَمَّد عبد الغني حسن، وطاهر أبو فاشا، وأحمد عبد المجيد الغزالي، والمهدي مصطفى، وغيرهم.

## جيل الشعر الحر:

وقد جاء جيل جديد من الشعراء بعد أبوللو، يطلقون عليه جيل الشعر الحر. وقد رفد الأزهر ودار العلوم هذا الجيل بصفوة من أبنائه أعتبرهم أقدر شعراء هذه المدرسة الحديثة التي تتخذ من التفعيلة وحدة لبناء القصيدة، وتحاول أن تدخل على القصيدة أصواتًا متعددة، وتفيد من أشكال فنية أخرى في تنسيق القصيدة، وتتخذ من الأسطورة والموروثات الشعبية رموزًا تغني القصيدة.

هؤلاء الشعراء الذين تكونوا في الأزهر ودار العلوم، وتفتحوا على

هذا اللون الجديد من الشعر أو هذا النسق، أظهروا مقدرة فنية هائلة؛ لأنهم يملكون الأدوات الفنية، ويمزجون في تكوينهم العقلي والروحي أنضج ما في التراث بأبهى ما في الثقافة المعاصرة؛ لذلك خلا إبداعهم الفني من الغموض الكثيف الذي يصل إلى درجة الألغاز، ومن هذه العجمة وتلك الركاكة التي تحيل القصيدة إلى ما يشبه الترجمات الركيكة. وكان هذا الجيل قد أنتج موجتين متعاقبتين على الرغم مما يوضع في سبيلهم من عقبات، ومما يتربص بهم من اضطهاد، جعل بعضهم يحسون أنهم (زنوج الثقافة العربية). قاد الموجة الأولى عبده بدوي، وسعد دعبيس، وفاروق شوشة، وكيلاني سند، وغيرهم. وقاد الموجة الثانية مُحَمَّد إبراهيم أبو سنة، وكمال عمار، ومُحَمَّد أحمد العزب، وأنس داود، وغيرهم. وأنا أعتبر عبده بدوي همزة الوصل بين جيل أبوللو وهذا الجيل الجديد، بل لعله أسبق شعراء المدرسة الحديثة – في مصر – إبداعًا في هذا اللون من الشعر، بل نشر شعرًا في جريدة المصري قبل صلاح عبد الصبور.

ثم هو دائمًا يبحث عن آفاق جديدة يستثمر فيها هذا اللون الجديد من الشعر، فمرة يكتب (أوبريت) مثل أوبرا الأرض العالية، ومرة يكتب (قصيدًا سيمفونيًا) يتناول فيه حياة النبي العربي (عليه السلام)، ومرة يحيل المواقف الإسلامية والأحداث والشارات والشخصيات رموزًا يستعملها برشاقة وفنية؛ ولذلك آن الأوان لأن نقول أن رائد هذه المدرسة الحديثة في مصر هو عبده بدوي، ثم هو لم يهجر عمود الشعر العربي، بل يبدع فيه أيضًا كثيرًا من نتاجه، وحتى وهو يبدع في هذا اللون الجديد يقبع في أعماقه هذا التراث العربي كله، يشكل تجربته ويمنحها الأصالة والعمق.

تلك هي أهم المدارس الشعرية المعاصرة، وهذا هو الأثر الكبير الذي أحدثه الأزهر فيها، وتلك بعض الأسماء من أبنائه التي كان لها أعمق الأثر في تطوير شعرنا الحديث، ولا يمكنني أن أتناول كل هذه الأسماء بالدراسة التفصيلية. ولكن لا بد من الوقوف عند شخصيتين من أكبر شعراء مدرسة البعث، انسحبت عنهما الأضواء في الأعوام الأخيرة، وهما الشاعران علي الجندي، ومحمَّد الأسمر. فهذان الشاعران من أعذب الأوتار في قيثارة شعرنا المعاصر، وهما شخصيتان من أعذب الشخصيات في عالم الفن.

## صاحب (ترانيم الليل):

أما الشاعر علي الجندي فهو نسمة من أرق النسمات، روح عذب ونفس وديعة صافية، وقلب يفيض بالحب والرحمة والحنان، ويحتدم في باطنه شخص مقتحم غزل يحب الجمال، ولكنه يقمعه بهذا المظهر الوديع الهادئ النبيل. ولد في شندويل من أعمال سوهاج، وحفظ القرآن ودخل الأزهر، ثم دخل دار العلوم وتخرج فيها، وعمل مدرسًا بالمدارس ثم مدرسًا بدار العلوم، ثم ظل يترقى حتى صار عميدًا لكلية دار العلوم. وقد أصدر ثلاثة دواوين من الشعر هي (أغاريد السحر) في عام ١٩٤٧، و(ألحان الأصيل) في عام ١٩٥٠، وأصدرت دار المعارف في عام ١٩٦٤ ديوانه الثالث (ترانيم الليل).

وشعره رصين جزل قوي البناء، فيه كثير من الماء والرواء، يمتاز شعره كما يقول الدكتور شوقي ضيف في مقدمة ديوانه الثالث: "بجزالة الصياغة ورصانتها ومتانتها وقوتها، وقد تجرى السهولة المفرطة في بعض جوانب صياغته، ولكن يظل الرونق لا يفارقها، وتلازمها العذوبة والسلاسة. ويوقع

الشاعر ترانيمه وألحانه على أوتار قيثارتنا الشعرية، الموروثة عن الآباء والأسلاف، والتي تهزنا وتروعنا بما تقدمه لنا من غذاء للعقول، وشفاء للقلوب والنفوس". والشاعر مرهف النفس رقيق الشعور ثري العواطف، ظاهره كعاطفة تلوح على صفحة وجهه كل التيارات التي تمور في باطنه، يتحول إلى دموع لمجرد أن يرى منظرًا مؤلمًا أو يرتطم بعقبات الحياة، ثم هو رجل متدين شديد الاعتماد على الله.

## صورة نفسية:

وقد رسم لنفسه لوحة نفسية تكاد تكون مفتاح قلبه وعقله يقول:

لكل امرئ جهر يخالف سره  وما لي من سر يخالفه جهري
تطالع في وجهي صحيفة خاطري  وتقرأ في عيني ما جال في صدري
خلقت كعيسى لا أكن ضغينة  بقلبي ولا أطوي ضلوعي على غدر

ثم هو دائم الشكوى والحزن والألم، يشكو ظروف حياته ويشكو حظه، ويتألم لشعرات بيضاء تلم برأسه، يقول من قصيدته (بين الرأس والقلب):

شعرات في مفرق الرأس لاحت  كنجوم تضيء في الديجور
تركتني في نضرة العمر أبكي  ذكريات الصبا بدمع غزير
وكستني ثوب الوقار، وهل أسمح  فى العين من وقار الصغير
يا لظلم الأيام إذ وقفتني  بين رأس شيخ وقلب غرير
ذاك يدعو إلى الرشاد وهذا  مستهام بكل وجه نضير

أما الغزل فله فيه جولات وصولات، وكلها لا تتعدى وصف تجاربه مع الفاتنات الحسان، وتجاربه عادة تقف عند النظر الأبيض البريء، وفي شعره الفكاهي سخرية نافذة، تصل إلى درجة الإيلام. يقول في (بعض الثقلاء):

ثقيل على أرواحنا نقل الحجر  نلقبه من شؤمه (زحل البشر)
تغيب بشاشات المنى بحضوره  وتهجر أحزان النفوس إذا هجر
كأن ثلوج القطب حشو ثيابه  فإن هو وافى كاد يقتلنا الخضر[11]
ترى الصحب منه مشفقين كأنما  تساورهم من قربه الحية الذكر
فإن لمحوه من بعيد تغامزوا  ولاذوا سراعًا بالأخاديد والحفر

وهو دائم الحنين إلى ماضيه، وله قصيدة نافذة بعنوان (مغنى الصبا الأول) من أرق الشعر المعاصر، وهي تجربة عميقة، عاد الشاعر فيها إلى حجرة كان يسكنها في أيام التلمذة، فوجدها ساحة خرابًا يبابًا، تتناثر فيها الحجارة وأكوام الصبا، فراح يناجيها في انفعال عميق:

أمغنى الصبا والصبا أخضر  حبا فوقك العارض الممطر

وعلى الرغم من أن الشاعر كتب في كل الأغراض الشعرية بمقدرة وأصالة، إلا أن شعره الذي رثا فيه أصدقاءه من أعمق ألوان الشعر عنده، تحس فيه ذوب الدموع ونبض القلب وصدق العاطفة. وله شعر يعبر عن تمرده وثورته على واقعه، وله قصيدة بعنوان (ليتني كنت صفيقًا) يقول

---

(11) البرد.

فيها:

سـر تعسـي وخيبـتي وشـقائي أنـــني حامـــل محيـــا رقيقـــا

ونحن لا نوافق الشاعر بطبيعة الحال على هذه السخرية النافذة، ونعتبر أن هذه الخلال النبيلة والأخلاق الفاضلة والمنزلة العلمية الرفيعة والطبيعة الإنسانية السمحة، كل هذه السجايا التي يتمتع بها شاعرنا الكبير هي التي جعلت منه هذا الصرح الشامخ الذي سيخلد على الزمان.

**سجل حافل بالأمجاد:**

أما الشخصية الثانية التي سأقف عندها فهي شخصية الشاعر مُحَمَّد الأسمر، وهو من شعراء البعث الكبار، تمرس بالشعر فترة طويلة من الزمان، وهو شخص مصقول النفس والذوق والسمت، مرح خفيف الظل، بارع النكتة، صافي الطبع، دمث الأخلاق. ولد في دمياط وتعلم في الأزهر واشتغل في مكتبة الأزهر، وظل لهذا متفرغًا للشعر. وقد أصدر ديوانه الكبير بعنوان (ديوان الأسمر) في عام ١٩٥١ في نحو ٦٦٠ صفحة، وضع فيها عصارة قلبه وذوب نفسه ونبض وجدانه. وقد وصف الشيخ مصطفى عبد الرازق شعره بقوله: "لشعرك تأثير في نفسي أحسبه يفوق ما يفعل الشعر، ذلك أنه فيض نفس أحبها. وقد يكون سحرًا ذلك الذي ترسله نغمًا موسيقيًا في أسلوب سهل قيسري في الأرواح، ويفجر العواطف خلالها تفجيرًا".

والحق أن ذلك السحر الشجي الذي نشعر به ونحن نعيش مع تجارب الأسمر الشعرية ثمرة من ثمار موهبته الكبيرة، التي امتزجت بأدواته التعبيرية

والتصويرية، وأخرجت لنا هذا الفيض الشعري العميق. وديوان الشاعر سجل حافل لحياة الأمة العربية بأمجادها السياسية والاجتماعية، وتصوير لمعالم الحياة فيها ووصف لمظاهر الطبيعة، ثم فيه الكثير من الإخوانيات والمداعبات التي تنم عن نفس مرحة وذوق رفيع، ولكنه كان يعبر أحيانًا عن تجاربه الذاتية وإحساسه الحاد بالحياة، فيجيء شعره فلسفيًا نابضًا بالمرارة والألم، يقول في قصيدة له بعنوان (أسير):

أنا كـــــالطير أســـــــير  واقــــع بــــين الشـــــباك
طـــال مـــا بـــين جنـــاحي  وجبـــالي مـــن عـــراك

ويكاد يكون الأسمر من أوائل الشعراء الذين صوروا مأساة الحرب العالمية الثانية أدق تصوير، في مجموعة من القصائد الحارة. فكتب (قبل الحرب العالمية)، وكتب عندما قامت الحرب، وكتب عن المخابئ (وليالي الغارات الجوية)، ويقول في هذه القصيدة الأخيرة:

وناعبـة في الليـل يسـري نعيبهـا  تحـــذر شـــر الطـــائرات وتنـــذر
نهضـــنا لهـــا متيقظـــين وعلمـــت  أخا القوم فيما علمت كيف يسهر
ونطفـئ أو نخفـي المصـابيح نتقـي  عواقـب بعـض النـور والـنجم ينظـر
ولـــو نالـــه مـــا نالنـــا لم تلـــح لـــه  مصـابيح مثـل الـروض وهـو منـور
وبات كمــا بتنــا علــى شــر حالــه  نعـاني ظـلام الليـل والليـل أعكـر

وقد خص فلسطين بباب كبير من ديوانه، وفي شعره الروحي تتجلى قدرته الشعرية وطاقته الفنية. وقد كتب الشاعر في مقدمة ديوانه تجربته وهو يبدع قصائده في دقة تفيد الباحث، يقول: "وإني في أول نظمي

للقصيدة أجدني مسوقًا إلى نظمها بشعور خفي، ليس في ما يرهق أعصابي، ثم يأخذني التيار الجارف فيربد وجهي، وأظل ذابل البصر، غائبًا بعض الغياب عما حولى. وفي هذه الحالة إذا نمت كان نومي متقطعًا، أغفو الإغفاءة ثم أقوم ناهضًا إلى القلم والقرطاس؛ لأن معنى من المعاني تمت صياغته بيتًا من الأبيات، وإنه ليخيل إلي أن مخي في أول عمل القصيدة، إنما هو (ساعة) أملؤها، وهو بعد ذلك يؤدي عمله بنفسه ولا سلطان لي عليه (كما تؤدى الساعة عملها)".

وفي هذه اللمحات مفاتيح نفسية كثيرة، يمكن من خلالها أن نقوم بدراسة الشاعر وتجربته الشعرية على ضوء من التحليل النفسي.